مقارنات في طرق التعليم الإبداعية والطرق الشائعة

طارق الجعبري

الإبداع يعدّ سرّاً من أسرار التفوّق في ميادين الحياة، ويمكّن صاحبه من كشف سبل جديدة في تغيير العالم الذي يحيط بنا والخلاص من الملل والتكرار. والإبداع أصبح المادة الأساسية في عمليات التغيير والتطوير، كما أن التفكير الإبداعي يعالج المعلومات بطريقة مختلفة تماماً عن طريقة التفكير المنطقي، ولذلك تتطلب عملية الإبداع إحساساً بالجمال ورنيناً عاطفياً، وموهبة في القدرة على التعبير.

وإذا أردنا تحقيق مثل هذه الكفاءة في حياتنا، فلا بد أن نضع لافتات عدة أمامنا، ونتبع معها طريق الإبداع، ومن هذه اللافتات: تقوية الخيال، الإحساس، توجيه المشاعر نحو الأهداف الجميلة، تنمية الفكر والثقافة والمعلومات، تبسيط الحياة وعدم الانشغال كثيراً بهمومها، اكتشاف النظام في الأشياء التي لا نجد فيها نظاماً في النظرة الأولى، أن نقدم الجديد بعد الجديد، وأن نفعل ذلك كل يوم، أن نحب أنفسنا والآخرين، وأن يكون حبّنا الأقوى للخالق المبدع.

أما مفهوم الإبداع فهو لغة من بدعه بدعاً: "أنشأه على غير مثال سابق فهو بديع، ويقال هذا من البدائع: مما بلغ الغاية في بابه"،[1] وهو «إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، وبدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه: أنشأه وبدأه. وبدَع والبَديعُ والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أَوّلاً. وفي التنزيل: قُل ما كنتُ بِدْعاً من الرُّسُل؛ أَي ما كنت أَوّلَ من أُرسِلَ، قد أُرسل قبلي رُسُلٌ كثير. وأَبدعْتُ الشيء: اخْتَرَعْته لأعلى مثال، والإبداع تحقيق إنتاج جديد وذي قيمة من أجل المجتمع.[2] ويُعرّف التفكير الإبداعي بأنه الاستعداد والقدرة على إنتاج شيء جديد، أو أنه عمليّة يتحقق النتاج من خلالها، أو أنه حلّ جديد لمشكلة ما، أو أنه تحقيق إنتاج جديد وذي قيمة من أجل المجتمع.[3]

والإبداع شكل راق للنشاط الإنساني[4] (روشكا، 4) والتفكير الإبداعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإبداع، حيث إن الإبداع يصف الناتج، بينما التفكير الإبداعي يصف عمليات التفكير وأسلوبه.

والإبداع صفة شخصية بينما التفكير الإبداعي أسلوب عمل أو أسلوب تفكير، لذا كان تعلمه ممكناً كتعلم أي مهارة، وعند الحديث عن التعليم الإبداعي في مجتمعنا ومدارسنا، لا بد من الإشارة إلى نتائج بحثية مهمة في هذا المجال، وأهمها:

1. جميع الطلاب على اختلاف أعمارهم وعروقهم، مبدعون لحد ما؛ بمعنى أن قدرات التفكير الإبداعي موجودة عند جميع الطلاب مهما اختلفت أعمارهم وعروقهم وجنسهم.
2. الطلاب متفاوتون في القدرات الإبداعية؛ بمعنى أن الفروق الموجودة بينهم هي فروق في الدرجة لا في النوع، أو فروق كمية لا كيفية، وعليه، يتوزع الطلاب بالنسبة لصفة الإبداع توزيعاً طبيعياً.
3. للبيئة أهمية كبيرة في تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي، وبالتالي تؤثر على الصحة العقلية والقدرات الإبداعية للطلاب.

يتعلم المتعلمون بدرجة أكبر وفاعلية أعلى في البيئات التي تهيئ شروط تنمية الإبداع. فقد تتوفر عند المتعلم القدرات العقلية التي تؤهله للإبداع، إلاّ أن البيئة (البيت، المدرسة، مجموعة الرفاق، المجتمع) قد لا يتوفر فيها التربة الصالحة للإنتاج الإبداعي الخلاق.[5]

وليس الخلل في نظام التدريس التقليدي فحسب، لكن المشكلة تكمن أيضاً في تغير الظروف المحيطة بالتعليم دون أن يتلاءم نظام التدريس مع المستجدات، فالانهيال المعرفي، والتدفق الفكري، والضخ الفضائي؛ قلل من دور المدرسة كمصدر وحيد للمعارف.[6]

ومن أهداف التعليم الإبداعي أن يصبح المتعلم مفكراً ومبدعاً، ويتفاعل مع مجتمعه ويطوره، وأن يساهم في حل مشكلات مجتمعه بطرق فعّالة مُبتكرة، والعمل على تنمية قدرات المتعلم إلى أقصى ما تسمح به.

في حين أن التعليم الشائع تتركز أهدافه على اجتياز الاختبارات التي تُعقد للمتعلم، وتحصيل المعلومات والمهارات الأساسية.

كما أن المعلم المبدع يمتاز بمرونة التفكير، ومُلم بمادته، ومخطط لمواقف التدريس، ويعمل على اختيار الإستراتيجية المناسبة وينفذها، وقادر على مواجهة المتغيرات الصفية، ومُبدع مُبتكر في حياته العامة.

بينما المعلم التقليدي غالباً ما يكون جامداً في تفكيره، ميّالاً إلى الإتباع لا الإبداع، مستجيباً للأوامر، غير ميّال للمبادرة، وخططه التدريسية غير مرنة، ونمطياً في حياته العامة.

وفي التعليم الإبداعي، فمكانة المعلومات تكمن في أنها وسائل للوصول إلى حلول، ولتنمية القدرة على حل المشكلات، وهي متغيرة ونسبية، لذا يجب إعادة النظر فيها وعدم التسليم بها فوراً.

أما حاضر تعليمنا فالمعلومة غاية في حد ذاتها، وتُقدم وكأنها ثابتة لا تتغير، والتفكير في مدى صحتها هو جهد ضائع، وعلى المعلم والتلميذ تجنب ممارسته ما أمكن.

وفي التعليم الإبداعي نهتم بالخبرة وطرق الوصول إليها، وتصبح الخبرة ذات معنى حينما يصل إليها المتعلم بنفسه، وتُقدم للمتعلم متكاملة تناسب مستويات نموه ومتوافقة مع بيئته، وتدفعه للتقدم والإبداع.

لكن في تعليمنا الاعتيادي، فإن الاهتمام ينصب على الخبرات المعرفية، وتحديداً على خبرات التسميع والاستظهار، وتُقدم الخبرة للمتعلم مُفككة، بعيدة عن بيئته، ونراها دافعة للملل لا للمثابرة، وعادة تكون أقل أو أعلى من مستواه.

أما محور المتعلم في التعليم الإبداعي، فإن المتعلم هو محور العملية التعليمية، والإبداع هنا يراعي ميول المتعلم وقدراته، ويهتم بالفروق الفردية بين المتعلمين وتوظفها، ويهتم بتنمية قدرات المتعلم، وبخاصة قدراته الإبداعية، ويهتم بإكساب المتعلمين روح البحث والتنقيب والاكتشاف والإبداع، ويهتم بتُنمية دوافع المتعلم، وبخاصة الداخلية منها. وعلى الاتجاه الآخر، فإن التعليم الاعتيادي، والمعلومات وكسبها، هو محور العملية التعليمية، ولا تهتم كثيراً بميول المتعلم ولا اهتماماته، وتعليم لا يهتم بالفروق بين المتعلمين، فهو أقرب لقيادة القطيع.

وتركز على قدرات الحفظ والتسميع لدى المتعلم، وتُقدم المعلومات للمتعلم جاهزة، لذا فهي مملة غالباً، والإيجابية فقط للمعلم، ولا تهتم بدوافع المتعلم، فهي تنمو عرضاً ومعظمها خارجية.[7]

وفي مشاركة المتعلم المُبدع وغير المُبدع، فإن المتعلم غير المُبدع يساير أقرانه المبدعين، ومستواه يتقدم مع رعاية المعلم بقدر ما يملك من قدرات واستعدادات، والمتعلم المُبدع يضطر غالباً إلى مسايرة أقرانه غير المُبدعين فيهبط مستواه.

وفي التعليم الإبداعي، تزداد رغبة المتعلم في التعلم، ويحرص على المشاركة في المناقشات والنشاطات الإبداعية، وتندثر ظواهر الغش، ويظهر التعاون والتنافس الشريف. وعلى الوجه الآخر، تنتشر كثير من المشكلات التربوية والتعليمية في التعليم الروتيني، كظواهر الاتّكالية، والغش، والنقل الآلي، وانخفاض مستويات التحصيل بعامة، ، ومحاولات التفرّد، ويمل المتعلم الجو المدرسي، ويضطر للغياب والهروب وربما التسرب من التعليم كلية.

ومناخ التعليم والتعلم الإبداعي يمتاز بالحرية والتقبُّل والتعاون، وتعدد الآراء والمناقشات الحرة، والتعبير عن الذات، ويُعوّد المتعلم على البحث والتنقيب والاستقصاء، وتسيطر على العمل روح النشاط والود والمشاركة. بينما التعليم غير الإبداعي فهو جو يسوده التقيُّد غالباً والخضوع والاستبداد، ولا مانع من المناقشة التي يقودها المعلم ويوجهها، مع الاعتراض على مبادأة المتعلم بها غالباً، وسيطرة روح السلبية والاعتماد على الآخر، وندرة المشاركة الفعلية.

وفي روح العصر، فبتعليمنا الإبداعي نهتم بالاستفادة من خبرات الآخرين المتقدمين في جميع المجالات، ونركز على ضرورة استيعابها وتطويرها. ونهتم بالمستقبل هدفاً، ونستعين بالحاضر في فهم الماضي وتمحيصه. أما التعليم العادي، فيتركز كثيراً على الماضي، ويتسم بالبطء في استيعاب الحاضر، ونادراً ما يهتم بالمستقبل.

ومن أهم أهداف التعليم استمرارية المعرفة، فمن خلال ممارسة التعليم الإبداعي، يؤدي موقف التعليم والتعلم الإبداعي إلى حل مشكلة مُلحّة، وبروز مشكلات أخرى، تُمثّل نقاط بدء لإبداعات جديدة من جانب المتعلم. وفي التعليم الإبداعي، فإن استمرارية المعرفة لا تظهر إلا عرضاً دون تخطيط مسبق، وتتمثل فقط في ربط الموضوعات ظاهرياً بين مقرر وآخر يليه. ويمارس المتعلم مهارات التفكير العلمي بدءاً من الشعور بمشكلة مُلحّة، وانتهاءً بالتوصل للحل الذي يتصف بالإبداع والأصالة من خلال علمية التفكير، بينما المعلومات تتقدم جاهزة، ولذا فالتفكير محصور في التذكّر والأنشطة التلقينية، والوقت غير مقيّد، والعبرة ببلوغ الأهداف، فالتعلم

والإبداع يتم وفقاً للخطو الذاتي للمتعلم، لا للمعلّم. أما تعليمنا الوقت مُحدد سلفاً، وعلى الكل السير وفق مُعدّل واحد هو خطو المعلم غالباً، دون اعتبار للمتعلم.

وعملية التعليم الإبداعي تهتم كثيراً بتنوّع مصادر التعلم التقليدية، والتقنية، والخبرات المباشرة، في حين أنه في التعليم التقليدي يكون المصدر الحقيقي للمعلومات هو الكتاب، وتأتي مصادر التعلم التقليدية الأخرى عرضاً، وأيضا تهتم بالجوانب التطبيقية والدراسات المعملية، بجانب النواحي النظرية. أما التعليم الإبداعي فيتركز الاهتمام بالجوانب النظرية، وتأتي الجوانب الأخرى عرضاً، ودون تخطيط غالباً.

ويحتل التعزيز مكان القلب، ويمثّل تقدير المتعلم وإثابته وتقبله جوهر الطرائق الإبداعية، بينما يحصل المتعلم على تعزيز لفظي نمطي غالباً على تحصيله وحفظه، لا على إبداعه، فالأخير ربما يُعاقب عليه، ويُسخر من نتيجته.

والتقويم في عملية التعليم الإبداعي يهتم بجوانب التفكير الإبداعي وقدراته. والاختبارات مفتوحة وإجاباتها غير مُحددة سلفاً، ويهتم بالاختبارات الموقفية والعملية، بينما التقويم الروتيني يهتم بجوانب الاستظهار والحفظ، والاختبارات نمطية وحلولها محددة لا تسمح بالتفكير، والإبداع يُمثّل خروجاً عن الإجابة عنها، وتعتمد على الاختبارات التحصيلية المُعدة دون علمية تُذكر.[8]

وهناك أوقات فراغ يُنمّي المتعلم فيها هواياته، وتتفتح فيها قدراته، ويمارس فيها ما يتناسب مع ميوله، بينما زحام المقررات لا يتيح أي وقت فراغ، لذا فممارسة الهوايات وتلبية الميول تأتي عرضاً.

والإبداع يزيد ثقة المتعلم بنفسه وبقدراته، ويساعده في نمو دوافعه الداخلية للتعلم والإنجاز، والشعور بالبهجة والرضا والنجاح، وتزداد ثقة المتعلم بنفسه بقدر حصوله على درجات عليا في الاختبارات التحصيلية، أما تعليمنا الحالي فتتخلله مشاعر القلق والخوف والتوتر، وبخاصة أنه لا يهتم بقدرات المتعلم وهواياته وميوله.

وخلاصة القول، إن الإبداع طريق النجاح والتقدم والتطور، وإن التفكير والتعليم الإبداعي السبيل الموصل للإبداع والمنتج الإبداعي، وفي ضوء التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي يشهده العالم بأكمله، وما يرافقه من نتائج وتغيرات اجتماعية وتربوية واقتصادية وسياسية، نرى أن الكشف عن الإبداع واستثماره يعد من أهم الأهداف التي يجب أن تسعى إليها الأمم إذا أرادت مواكبة هذا التقدم.[9]

فقد حظي التفكير الإبداعيّ باهتمام كبير من علماء التربية وعلم النفس، إذ أصبح الآن "اللغة السائدة للعصر الحديث، حيث انتقل مركز اهتمام علماء النفس من دراسة الشخص الذكيّ إلى دراسة الشخص المبدع، والعوامل التي تسهم في الإبداع، كما تحوّل الاهتمام من التعليم التلقينيّ إلى التعليم الابتكاريّ الذي يعتمد على تعلّم التفكير، وطرق مواجهة المشكلات، وتقديم الحلول الابتكاريّة لها، لما لقدرات التفكير الإبداعيّ من دور مهمّ في تطوير المجتمع الحديث وازدهاره، وما يمكن أن يتولّد عن هذه القدرات من أفكار أصيلة، وحلول جديدة للمشكلات اليوميّة للأفراد والمجتمع.[10]

طارق الجعبري
مدير التخطيط والتعليم في جمعية الشبان المسلمين – الخليل

الهوامش:

[1] انيس، ا. منتصر، ع. الصوالحي، ع. احمد، م. (1972). **المعجم الوسيط**، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف، ص: 82.

[2] شكور، ج، و. (1994): **كيف تجعلين ابنك مجتهداً ومبدعاً**. الطبعة الأولى. بيروت: عالم الكتب، ص: 25.

[3] حبش، ز(2005). **التفكير الإبداعي**
http://www.zeinab-habash.ws/education/books/Creative_thinking.htm ص37. (تاريخ الدخول 16/ 8/ 2009)

[4] الحمادي، ع (1999): **صناعة الإبداع**. الطبعة الأولى، بيروت: دار ابن حزم، ص: 24.

[5] المصري، م. «**أهمية التدريس لتنمية مهارات التفكير الإبداعي**»، (تاريخ الدخول: 20/ 5/ 2009)، الموقع الإلكتروني:
http://www.ta9weer.com/vb/showthread.php?t=2892

[6] هيجان، ع، ا. (1999). **المدخل الإبداعي لحل المشكلات**. الطبعة الأولى، الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ص: 178.

[7] جعبري، طارق. (2008). **دور الإدارة العليا في تحقيق الإبداع المؤسسي في المنظمات الأهلية في جنوب الضفة الغربية من وجهة نظر المديرين**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، ص: 54.

[8] جامعة القدس المفتوحة. (2003): **التفكير الإبداعي**. الطبعة الأولى، عمان: جامعة القدس المفتوحة، ص: 210.

[9] كنعان، أ. (2004): **التربية الحديثة وتنمية الإبداع**، حلب: www.mubde3a.net/mobilesphp?action=savemobile&id=51
(تاريخ الدخول 22/ 6/ 2009)، ص: 23.

[10] روشكا، أ. (1989). **الإبداع العام والخاص**، ترجمة: غسان عبد الحي أبو فخر، الكويت: عالم المعرفة، ص: 211.